

رُتبة السّلام الاحتفالي لعيد القيامة بحسب طقس كنيسة المشرق

الأب إسحاق أدونيه تمرس

رُتبة السّلام الاحتفاليّ لعيد القيامة، من الرُتب المميّزة والمهمة ونَجدها في أغلب ليتورجيات الكنائس الرسولية. ما سنحاول إيضاحه عن هذه الرُتبة بحسب ليتورجية كنيسة المشرق، سيكون بصورة موجزة وموضوعية. سننتبّع البُعد الكتابي لكلمة السّلام حسب النصوص الكتابيّة، في كِلا العهدين. مع عَرَض مُفصل للبنىّة الطقسية لرُتبة السّلام بحسب كتاب الحوذرا الطقسيّ. والمعاني الليتورجية لرُتبة السّلام بحسب النصوص الليتورجية مع ربطها ببُعدها الكتابي. وبيان الخُلاصة اللاهوتية لهذه الرُتبة.

أولاً: البُعد الكتابي لكلمة السّلام حسب النصوص الكتابية:

تُرد كلمة السّلام في العهد القديم (239) مرّة، و(86) مرّة في العهد الجديد. أمّا قُبلة السّلام أو القُبلة المُقدسة فتُرد في هذه النصوص الكتابية بعهديه تسعة (9) مراتٍ: (مثل 6:27، نش 1:2، لو 7:45، 22:48/ روم 16:16، 1 قور 16:20، 2 قور 13:12، 1 تس 5:26، 1 بط 5:14).

إنّ السّلام الكتابي هو أساس السّلام المُستخدم في ليتورجية الإفخارستيا. ومن خلال دراسة النصوص الكتابية والخاصة بقُبلة السّلام يُمكن اكتشاف النُقطة الجوهرية التي نبع منها السّلام في الليتورجية المسيحية. أنّ مفهوم (قبلة السّلام أو القبلة المقدسة) كانت منتشرة في الكنيسة الأولى، وبعض المفسرين يرون في القُبلة إنّها كانت في الأصل عادة يهودية ثم تناقلتها الكنيسة الأولى¹. وبحسب قول باركلي: "بالتأكيد لم تكن قبلة مختلطة بين الرجال والسيدات، بل كانت بين رجل ورجل، وبين امرأة وامرأة. وأحياناً لم تكن تعطى على الشفاه بل على الأيدي". وأما عن سبب فُقدان أو تغيير هذه القبلة أو السّلام يُوضح باركلي مبيناً أنّه: "عندما تحولت الاجتماعات الصغيرة إلى اجتماعات كبيرة وعندما أصبحت الغرف الصغيرة كنائس كبيرة ضاعت الألفة والمودة، وضاعت معها قبلة السّلام". يبدو من هذا أنّ قبلة السّلام هي السّلام بحد ذاته، وهي تقليد ليتورجي عريق وعميق في الجماعة اليهودية ومنها إلى المسيحية أيضاً، على سبيل المثال تسليم ربّنا ومخلصنا يسوع المسيح بالقُبلة.

من المعاني الخاصّة بالسّلام وبقُبلة السّلام، إنّها أعظم حالة إنسانية تدل على التّواصل والوحدة والألفة وعبارة ضيافية (أي متعلّقة بالضيافة) في الثقافة الشرقية. والمصالحة تبدأ بالسّلام وتقبيل الواحد للآخر دليل على المغفرة والتسامح وبداية لعلاقة إنسانية جديدة. والإطار الكتابي لقُبلة السّلام هي ضمن الإطار الخاصّ بمعنى المحبّة Agape. وينبغي التمييز ما بين الكلمات التالية: eros و philia و Agape. التي غالباً ما تُترجم في العربية بالمحبة أو الحُب.

¹ الدكتور وليم باركلي، تفسير العهد الجديد-المجلد الثالث، الطبعة الأولى، دار الثقافة، القاهرة، 1991، الصفحة 394.

ثانياً: البُعد الليتورجي لقبلة السّلام

قبلة السّلام أو السّلام بذاته، يبقى من النقاط الجوهرية في ليتورجية الإفخارستيا الشرقية، ومنها كنيسة المشرق. وإلى يومنا هذا نجد أنّ رتبة السّلام تجري بنفس المعنى والصورة: "يُحي الكاهن المؤمنين قائلاً: السّلام معكم، فيجيبون: معك ومع روحك. فيضع الكاهن يده اليمنى على التقادم ثم يضعها على المذبح، فيصعد أحد شماس درجات المذبح (قدس القداًس) ويلثم المذبح ويد الكاهن وينال منهما السّلام. ثم يلتفت الشماس نحو الشعب قائلاً: أختوتي، تبادلوا السّلام بحُبّ المسيح. وعند نزوله يُعطي السّلام أولاً للشمامسة الآخرين، ثم يتبادل السّلام مع أحد المؤمنين في الهيكل، ويتبادل المؤمنون بينهم، واطعاً كل واحد كفيه في كفي الآخر، بعد ذلك يقبل الشخص يديه. وهكذا ينحدر السّلام من المذبح إلى الكاهن، ثم إلى الشمامسة وأخيراً إلى المؤمنين"². في هذه اللحظة التي يتبادل فيها المؤمنون السّلام يُقرأ سفر الأحياء والموتى، إشارة إلى أنّ السّلام هو سلام اسكاتولوجي شموليّ كونيّ، الآن وإلى الأبد. ويتم تبادل السّلام قبل بداية رتبة التقديس، لأننا سنكون في لحظة مقدسة مُتصالحين مع بعضنا البعض ومع الله الأب الذي صالحنا بأبنة الوحيد وجعلنا به ومعاً أبناءً له.

ثالثاً: البنية الطقسية لرتبة السّلام:

لحمك لحمي³ ودمك دمي

رتبة السّلام الاحتفالي لعيد القيامة

تحضيرات للرتبة: عند بزوغ الفجر يدخلون الكهنة والشمامسة بملابس موقرة ومزينة ولائقة. وإذا، تم حضور أساقفة عدة أو أسقف واحد، يرتدون الحلة الطقسية. ويدخلون قدس الأقداس، مع الصليب والإنجيل وأغصان الزيتون (أوشعنه) والمبخرة والشموع.

1. **البداية:** الصلاة الربية. (كما تقال في الأعياد).

2. **الصلاة الكهنوتية الافتتاحية:** "أعُضد يا ربنا وإلهنا ضَعْفَنَا". والتي تعبّر عن الاحتفال بعيد القيامة الماراني، وتمجيد قيامة الأبن الحبيب.

3. **بعد الصلاة الكهنوتية الافتتاحية يُترتلون مز: 150** "سَبِّحُوا اللَّهَ فِي قُدْسِهِ سَبِّحُوهُ فِي جَلْدِ عَرِيهِ". ثم يُضاف إليه مز: 116 "سَبِّحِي الرَّبَّ يَا جَمِيعَ الْأُمَمِ وَأَمْدَحِيهِ يَا جَمِيعَ الشُّعُوبِ". ومع كل جملة من المزمور تُقال هذه الردة **ربنا لصننا، لحمك لحمي، دمك دمي**: نحتفل بقيامة مسيح الملك بهلّويا.

4. **الصلاة الكهنوتية: بُعِدْ جَنِّيْ جَلِيْقَتِي. هَبِّيْ بِيَدِيْ جَلِيْقَتِي. هَبِّيْ بِيَدِيْ جَلِيْقَتِي. هَبِّيْ بِيَدِيْ جَلِيْقَتِي. هَبِّيْ بِيَدِيْ جَلِيْقَتِي. هَبِّيْ بِيَدِيْ جَلِيْقَتِي. هَبِّيْ بِيَدِيْ جَلِيْقَتِي. هَبِّيْ بِيَدِيْ جَلِيْقَتِي.**

²المطران جاك إسحق، القداًس الكلداني-دراسة طقسية تحليلية، منشورات دار نجم المشرق، الطبعة الثانية، بغداد، 2008. الصفحة 145.

³نَحْمُ سَبِّحُكَ بِمَعْنَى: دار في البيعة بزياح. عظم. احتفل عيداً. احتشد. اجتمع. فرح. رقص.

١٥. **مَذْبَحُ هَمِيبَةَ أَعِدْ: نَوْصِصِمْ ١٦ هَجْدُ: صَبَبْ ١٧ جَبَبْ ١٨.**

16. ترتل في هذه الأثناء ترتيلة "بصلبه". هنا يدخل الجمع إلى داخل الكنيسة أي الهيكل.

17. ثم يُقرأ "التعليم الكنسي الخاص بعيد القيامة". **مَلَقَمِمْ ١٨.**

18. **هَمِيبِمْ أَعِدْ ١٩. هَمِيبِمْ أَعِدْ ٢٠. هَمِيبِمْ أَعِدْ ٢١.**

ثم تُرتل البركات من قبل الكاهن، وفي نهاية كل بركة يُجيب الجمع بآمين. (الخاتمة).

رابعاً: المعاني الليتورجية لنصوص رتبة السّلام:

ترتكز رتبة السّلام أو (قُبلة السّلام)، على الحدث الفصحي لربنا يسوع المسيح، بمعنى أدق إنَّ النصوص الليتورجية المُستخدمة في هذه الرتبة تنطلق من حدث دخول يسوع المسيح إلى أورشليم مروراً بألامه وصلبه وموته وقيامته. خارج هذا المحور الأساسي لا يمكن فهم رتبة السّلام. ومُعظم النصوص تؤكد على ذلك. لذا، سنوجز أهم المعاني الليتورجية التي تنص عليها نصوص رتبة السّلام بالنقاط التالية:

1. الصلوات الكهنوتية: تحتوي الرتبة على أربعة صلوات كهنوتية:

الصلوة الأولى وهي الإفتتاحية: تُجسد المعنى الأصيل لصيغة الصلوات المشرقية، لأنها تبدأ بصيغة الصلاة المستخدمة في القداس الإلهي، "اعضد يا ربنا وإلهنا ضعفنا". وتمتاز بمعنى احتفالي (عيد)، وعيد ماراني (أي أنه أحد الأعياد الربية)، (عيد القيامة).

الصلوة الثانية: وهي صلاة تسبق (العونيثا)، هذه الصلاة نفسها المستخدمة في سابع الصليب، تُقال قبل (الشورايا) في صلاة المساء لأيام الأحاد. ومعناها مرتبط بالصليب، لأنَّ الكنيسة به تأسست، وبه حلَّ الأمان في ربوع العالم.

الصلوة الثالثة: وهي صلاة خاصة مرتبطة بالأعياد المارانية فقط، وتُقال قبل (الشورايا) في صلاة المساء. ومعناها مرتبط بالتدبير الإلهي، والأعياد المارانية هي أعياد التدبير الإلهي بشخص يسوع المسيح محور التدبير.

الصلوة الرابعة: وهي صلاة مزدوجة، تعبر عن معنى السّلام والأمان، الذي بُشر به من قبل الملائكة. وبه حل زمن الفرح، بمعنى عيد القيامة.

2. المزامير: مز 150: " سَبِّحُوا اللَّهَ فِي قُدْسِهِ سَبِّحُوهُ فِي جَلْدِ عَرِّهِ ". معاني المزمور تتفق مع الاحتفال

الليتورجي، وبداية الليتورجية تكون من قدس الأقداس التي هي قُدسه. والطابع الاحتفالي واضح في استخدام الآلات الموسيقية، والتي كانت تُستخدم في الأعياد والمناسبات القومية أيضاً. والمعنى الشمولي والكوني لحدث الخلق يتحدد في الآية 2 عن سبب التسييح، لأنَّ القيامة تعبر عن خلق جديد.

ثم يُضاف إليه مز 116: "سَبِّحِي الرَّبَّ يَا جَمِيعَ الأُمَمِ وَأَمَدِّحِيهِ يَا جَمِيعَ الشُّعُوبِ". هو امتداد لمزمور 150 بعلاقته الشمولية والكونية من ناحية الأُمَم والشعوب، وبروز رحمة الله لكل الشعوب، لكن نود أن نوضح أن النص السرياني يُعبر عن الرحمة بـ "النعمة".

مز 97: " الرَّبُّ مَلَكٌ فَلتَبْتَهِّجِ الأَرْضَ ولتَفْرَحِ الجُرُزُ الكَثيرة!". البُعد الإسكاتولوجي هو مركز هذا المزمور، المنتصر هو الله والأبرار، والأبرار بتمسكهم بإيمانهم حتى النهاية. والفرح سيكون بخلص عظيم لمدينة صهيون. والكل مرتبط بالمخلص الذي خلصنا وحقق الخلاص النهائي الآن وإلى الأبد.

3. التراتيل المرتبة في هذه الرتبة:

الترتيلة الأولى: وهي عبارة عن أبيات شعرية قصيرة جداً، تتغنى بكل الأعياد المارانية والتدبير الخلاصي وذكرى الآباء والقديسين، والشهداء مثل اسطفانوس. ومن ثم سنجد أبيات أخرى تخص الصليب ووصف عملية الصلب ومفاعيل الصليب، ومن ثم أبيات عن القيامة والمجد، وباعتبار موت مخلصنا هو لخلص وتقديس كنيسته. وتُرتل كل هذه التراتيل في قُدس الأقداس.

الترتيلة الثانية: **ἕκαστος ἑξ ἑαυτοῦ**. تتكون من سبعة صور كتابية وتتبعها ترتيلة بنفس المعنى الكتابي للآية. النص الأول: هو من سفر اشعيا النبي 60:1-2، لكن مع تغير طفيف في النص وهو: أن كلمة (الشعوب) تم استبدالها بكلمة (صاليه). والفكرة واضحة جداً، فبهاء أورشليم سيكون بهاء الكنيسة (بمفهومها الجامعي). النص الثاني: اشعيا 60:3-5. النص الثالث: يوحنا 19:33-35. النص الرابع: يوحنا 19:41-42. النص الخامس: يوحنا 16:18-19. النص السادس: يوحنا 17:1ب-2أ، 10. النص السابع: داود 24:9-25:26 أ و ب. هذه النصوص الكتابية التي تُعبر عن اكتمال النبوءات الخاصة بيسوع المسيح من قبل الأنبياء اشعيا ويونان ودانيال. والتراتيل التي تتبع هذه الآيات هي تفسير لمعنى النص الكتابي. وتكتمل هذه التراتيل بتراتيل أخرى، التي تقتصر في المعنى الليتورجي على شرح عملية الصلب ومعنى الصليب. وهي في إطار النص الكتابي إذا ما قورن معنى الترتيلة بالنص الكتابي. هذه الأبيات الشعرية تعتبر من النقاط الجوهرية التي تخص المفهوم اللاهوت لمعنى الصليب في كنيسة المشرق، وهي في إطار الوحي الإلهي الشمولي والكوني لحضور الله مع الإنسان في كل مراحل حياته الأرضية. وتُضاف "تراتيل الألحان المساعدة"⁹، ومن ثم ترتيلة المجدلة، التي تخص بمجد القيامة، وحقيقة القيامة والإيمان بها، وظهور يسوع لتلاميذه ومن ثم قصة توما وإصراره على رؤية يسوع المسيح شخصياً.

4. المناداة: تُعتبر هذه المناداة القمة اللاهوتية في تفسير ومعرفة رتبة السلام أو قُبلة السلام أو القُبلة المقدسة. ففيها سنجد أصالة لاهوتية مشرقية وبأبعاد كتابية وليتورجية مُعاصرة. فالطلبات التي تحتويها المناداة تنص على مفهوم السلام المسيحي الحقيقي الذي ينبع من القيامة، والقيامة بمفهومها الكوني الشمولي (الروحانيين

⁹مجموعات من الأبيات الشعرية، يختارون منها مجموعة ترتل في ختام جلسة الصلاة أي صلاة.

والجسديين) وفي إطار السّلام الإسكاتولوجي الذي تحقق الآن. والتركيز على شخصية يسوع المسيح باعتباره ينبوع والمصدر الوحيد للسّلام، به تم تحقيق الخلق أي بمعنى خلق عالم جديد يسوده السّلام الدائم. بما أنّ النصوص الليتورجية تنص على أنّ السّلام ترافقه القُبلات " **بصليبه-بصليبه** " **بصليبه-بصليبه** " **بصليبه-بصليبه** ". فإذا السّلام وقُبله السّلام أو القُبله المقدسة بحسب بولس الرسول، هما مفهوم أو طريقة واحدة في فهم رُتبة السّلام في الليتورجية المشرقية.

5. تبادل السّلام: من خلال البُنْيَة الليتورجية سنصل إلى مرحلة تبادل السّلام وكيفية تبادل السّلام، وهي موضحة أعلاه. لكن سنتطرق إلى وصف لليتورجي عريق ومُعَبَّر جداً عن حقيقة السّلام. ففي هذه اللحظة يتبادل الجميع السّلام بتقبيل الصليب والإنجيل ومن ثم تبادل السّلام. وهنا تُرتل ترتيلة جميلة جداً وهي ترتيلة (بصلبه). وبعد تبادل السّلام يدخل الجمع من باحة الكنيسة التي فيها يكون تبادل السّلام إلى داخل فناء الكنيسة إذا صح التعبير (الفردوس الجديد). بمعنى أدق، إنّ معاني ترتيلة "بصلبه" تتركز بمفهومها اللاهوتي العميق على سرّ المُصالحة الذي حقّقه لنا الأبن (جنس آدم)، وبنفس هذا الجنس حُقق السّلام. والصليب بذاته أُعتبر علامة الخلاص والسّلام والتّصالح وبه رجع جنس آدم إلى أصله الفردوسي. أي أننا تصالحنا مع الله الأب ومن خلال ابنه الوحيد، وأدخلنا إلى فردوسه الدائم والحقيقي وهو معنا كل الأيام من الآن وإلى الأبد.

خامساً: الخلاصة اللاهوتية لرتبة السّلام:

إنّ مفهوم السّلام هو مفهوم كوني ومُرتبَطٌ بالحضارة الإنسانية وفي مقدمتها حضارة الرافدين، لذا السّلام الكتابي هو نتاج لهذه الحضارة. وهذا ما وجدناه من خلال التفسير الكتابية التي تُفسر أنّ السّلام الفصحي هو سلام مُتَّبَع في التقليد اليهودي الذي هو من "الإرث الحضاري المشترك" وقد تناقل عبر الأجيال إلى يومنا هذا، ووصل إلينا من خلال الحدث الفصحي، ومن ثم الإفخارستيا التي كانت تُقام في المنازل ثم الكنائس الكبيرة. لكن السّلام هنا يدخل ضمن الوحي الإلهي المتواصل مع الإنسان والإنسانية في كل المراحل التاريخية، إنطلاقاً من قصة الخلق. لأنّ العالم المخلوق والخليقة كُلها خُلقت بالسّلام وعاشت مع السّلام، والغاية النهائية كانت العيش بسلام دائم وأبدي. لكن حرية الإنسان أفقدته هذا السّلام، وبالسّلام ذاته سلّم ربّ السّلام إلى الصليب. والمُفارقة إنّنا سنرجع ثانية إلى السّلام الدائم من خلال الصليب، وبه سندخل الفردوس الدائم وإلى الأبد. وحقيقة السّلام الدائم تكتمل في قيامة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، وقيامته هي حقيقة خلق الكون الجديد والعالم الجديد. وكل هذا من خلال السّلام.

المحور الأساسي والجوهري في رُتبة السّلام الطقسية يكمن، في مفهوم الصليب المرتبط في اللاهوت المشرقي بمفهومه الإسكاتولوجي. التراتيل والمزامير وصلاة الكاهن وحتى الآيات الكتابية تتمحور حول الصليب ومن ثم القيامة، والصليب هو سرّ من الأسرار الكنسية السبعة في كنيسة المشرق. ونحوه تتوجه الأنظار في الرتب الطقسية، وهو صليب مُجد كونه لا يحمل المصلوب، دليل على قيامته. لذا فليتورجية الكنيسة المشرقية تتجه إلى الصليب، إي إلى المصلوب والقائم والحي معنا في صورة الصليب الذي يُعبّر عن سرّ دخول المسيح إلى تاريخ

البشرية. فمن الممكن القول أنّ رتبة السّلام بيّعتها الإسكاتولوجي تعطي للمؤمن حامل صليبه، السّلام الدائم الذي به يتواجد في حضرة الثالوث الأقدس (الأب والأبن والروح القدس)، من خلال المشاركة الدائمة في سرّ الإفخارستيا، وفيها نستليم السّلام الدائم من يسوع المسيح بذاته، (إلى الموتى والأحياء معاً) ونكون شاهدين على قيامته، وقيامه (جنس آدم) الآن وإلى الأبد.

الخاتمة

تبادل السّلام رُتبة تتكرّر في كل احتفال افخارستي، ولكن رُتبة السّلام لليلة عيد القيامة، لها طابع خاص ومميز في ليتورجية كنيسة المشرق، كما لاحظنا، وخاصة ربطها بين حقيقتين متناقضتين، السّلام والصليب! ورأينا كيف ارتبطت هاتين الحقيقتين المتناقضتين بشخص ربنا يسوع المسيح الذي قبل أنّ يكون الحمل الذي من خلاله صالح الله البشرية، وأصبح منبع للسّلام الذي ينشده العالم اليوم ولن يراه إذا لم يقبل السّلام الذي يقدمه ربّ المجد من علو صليبه بكل مجانية وعطاء.

نُشر نص هذه المقالة في مجلة (المجلة الليتورجية) مجلّة فصلية راعوية، السنة العاشرة-العدد (37-38)

-2017.